

كائنات من طرب 2/ 2

ولم يكن الصراع منحصرأ بين الضرتين (أم محمد) و (أم عبيد)، لكنه أيضاً ممتد إلى الأبناء، رغم أن (محمداً)- الأخ غير الشقيق – الذي يتمتع بقدر من الثقافة والذكاء والحكمة حاول التقريب بين وجهات النظر وتخفيف حدة التوتر بين فرعي الأسرة، لكن (خلف) الأخ الأصغر من (أم عبيد شيخة) كان على النقيض، فسعى بكل جهد إلى إذكاء جذوة الصراع لتحقيق مصالح خاصة كأن تؤول إليه المزرعة التي تركها والده، أما (عبيد)- الأخ الأكبر - فلديه من المسؤوليات ما يعوقه ويضعف سطوته، لا سيما في وجود (ناصر) التاجر الذي يؤهله ماله لجعل (عبيد) أجيراً عنده، ومن ثم فقد كانت تتكسر قرارات الأخير عند أول نظرة حادة من عيني (ناصر)، وتلعب النسوة دور البطولة في إذكاء هذا الصراع بين الأخوة، ما بين الكبير الفقير والصغير الغني، وما بين (محمد) غير الشقيق و (ناصر) الذي اختاره صديقاً ومقرباً له دون بقية أخوته، وما بين صراع قديم بين الضرتين امتد شرره ليصيب الجميع، ويلمح القارئ لنص (الفران): (كائنات من طرب) سيادة الشخصية النسائية وتمتعها بقوة ملحوظة، فقد كانت الصانع الرئيس للحدث سلباً وإيجاباً على حد سواء، بينما جاءت شخصية الرجال أطياف مهزوزة تحركها النسوة نحو الصراع في الخفاء، وبدأت شخصية (نورة) زوجة عامر الأقوى إلى حد كبير، فقد كانت تحمل بذور التمرد والثورة ضد التقاليد المفروضة، فقد كانت راغبة في تحقيق ذاتها، تزوجت (عامر) بعد ضغط من والدتها، ولكنها أصرت على مفارقتها، إلا أن تمردها لم يصمد كثيراً حيث انتهى بها المطاف إلى الزواج من (سعد بن هادي الشيخ الكبير)، وكان زواجها من (عامر) كان قدراً محتوماً لا لشيء غير أن بيت (عامر) يقع في منتصف المسافة بين بيت عائلها وبيت زوجها الجديد، بينما جاءت شخصية أمها ذات صفات مثالية حسب تعريف علماء الأنثروبولوجيا للمجتمعات الأمومية ودور الأم فيه، فالأب لا يملك القرار وهو أقرب إلى الضيف في المنزل، بينما الأم هي الحاكم الأمر الناهي الذي تتمتع بكامل السلطة، ومن ثم انحصر الصراع بينها وبين

ابنتها (نورة) سواء في زواجها من (عامر) أو (سعد بن هادي) أو حين رغبت أن تصبح موظفة في بنك.

ويمكن القول إن الإطار البوليسي الذي اختارته الفاران لعملها جاء إطاراً هشاً أو غير مكتمل، فالتيمة البوليسية ليست نصاً فنياً مفتوحاً مشرعاً للتأويلات؛ لأنه مرتبط بعقدة وحل، وما بين هذين الموقفين تأتي الدراما وتكشف الشخص، وقد قدم لنا النص كل ذلك إلا أنه ترك غياب عامر سرّاً مجهولاً، وهذا لا يتناسب مع هذا النوع من الكتابة؛ لأنه إخلال بواحد من أهم عناصره؛ لذا فقد جاءت هذه الثمية ضرورة اقتضتها رغبة غير مقنعة فنياً لرصد كل هذه الجوانب من الصراع المتعدد بسبب التحول من المجتمع القبلي إلى المجتمع الحديث، ومن ثم فالإطار البديل أو الأكثر وضوحاً هو إطار الأسرة الممتدة؛ لأنه يمثل من جهة أولى مركز اشتغال النص في بنيته الكبرى، كما أنه من جهة أخرى الأقرب إلى بنية العنوان "كائنات من طرب"، فمنذ أن قرر الأب الزواج بأخرى فقد مهد هذا الصراع الممتد لتبقى

(شيخة) وأولادها في مزرعة النخيل، وتصبح (شيخة) ملكة القبيلة الخاصة بها، لكن قوانين الحياة الجديدة تجبر الأولاد على التوزع والابتعاد من حولها، فيخفقون في أول امتحان حقيقي وهو الالتفاف حولها للبحث عن أخيه المفقود، ومن ثم لا تلبث (شيخة) أن تموت؛ لأنها تعدت سلطتها على مملكتها، ولم يعد لها قيمة ضمن القانون الجديد، فتتحل عقد الصراع، فالجميع ينسى الغياب وينشغل بالحضور في صراع المصالح الخاصة، فزوجته تحصل على حكم الطلاق لغيابه، و (عبيد) يتنازل عن مكانته الاجتماعية والأسرية مرغماً بسبب ظروفه القاسية ليعمل أجيراً عند أخيه الأصغر ناصر، وفرعا الأسرة يتقاربان، ويفشل (خلف) في مساعيه لحرمان أخوته من المزرعة بعدما جاءه عمل في أبها، وكأن (شيخة) كانت مركز الصراع ومحوره، لكنه ليس صراع التحول من المجتمع القبلي إلى المدني كما هو ظاهر النص، ولكن صراع الأنوثة والذكورة من خلال المجتمع الأموي الذي تهيمن فيه الأم على كل شيء، ومن ثمن فقد رأينا نص "كائنات من طرب" لا يحفل بالمكان فهو شبه مجهول، ولا يزيد عن كونه فضاءً بين القرية والمدينة، ولا نعرف تحديداً واضحاً له، وكأنه مكان

خياليُّ هدفه تقديم رؤية النص المفترضة، وكأن المجتمع المحلي لم يكتفِ بالمآزق التي تعانيها الحضارة العربية وبلدان العالم الثالث، بل أضاف إليها مآزقاً أكثر عمقاً وغربة؛ لأنه يصّر على تأدية خطوتين أو ثلاث في قفزة واحدة ليسابق الزمن ويلحق بالركب.

على أن (أمل الفاران) بعد ذلك كله سعت - ووفقت إلى حد كبير - من خلال نصها "كائنات من طرب" في رصد العديد من القضايا التي تتخر في بناء مجتمعها، وقد حاولت كشفها بطريقة فنية، وفي مقدمتها القضيتان الأساسيتان في حياة عامر، وأولهما: قتله أو ما كان سبباً في قتله فيزيقياً، (التهريب وتجارة المخدرات)، وهي واحدة من أمراض وآفات المجتمعات الحديثة، أما الثانية: فقد قتلته منذ زمن بعيد (شذوذه الجنسي)، وهو أيضاً من منتجات مجتمع الحداثة وما بعدها المطالبة بالحريات المطلقة، ولأن المجتمع ما زال يراوح ما بين الحداثة وما قبل الحداثة فإن (الفاران) تطالب بالسير قدماً نحو التحديث بخطى ثابتة وضبط الحريات وتقنينها لا خنقها، ومن ثم تجعل (نورة) تحصل على حكم الطلاق من زوجها الغائب؛ لأنه حق مشروع، وحرية مقبولة، في حين ترفض أن تستمر علاقة المرأة بالرجل حين تكون خارج مسارها الطبيعي، لذا جعلت صديقة (عامر) تقطع علاقتها به لتنتهي إلى الإخلاص لزوجها وبيتها وحياتها الخاصة، وكأن الرواية في رسالتها الأخيرة تدعو إلى تحديث الأفكار والمجتمع وفق ضوابط وأطر تحفظ كرامة الإنسان، وفض الاشتباك بين القبلي والمدني، ولا بد أن نعرف ما الذي نختاره من الحداثة وما نبقى عليه من تراثنا وثقافتنا الأصيلة.